مجلة الإحياء، المجلد: 18، العدد: 21، جوان 2018، ص - ص: 373 – 390
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

أزمة الحضارة الغربية في منظور أبي الحسن الندوي

Crisis of Western civilization in the perspective of Abi Hassan Nadawi

طالب الدكتوراه: **أحمد جاب الخير**
جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة
djabelkhirahmed@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2018/02/11 تاريخ القبول: 2018/06/09

الملخص:
تتمحور هذه الدراسة حول رؤية أبي الحسن الندوي لحقيقة الحضارة الغربية، ونقده لما تنبني عليه من مقومات وأسس، ومدى تأثيرها في الواقع العربي الإسلامي، مبينا في السياق ذاته أسس البديل الحضاري الإسلامي، وتميز مقوماته من حيث أصالة القاعدة المرجعية، وسُمو الهدف، وسلامة المعايير، وهو ما يُعد تأسيسا لحضارة إسلامية بديلة، مع بيان أُطر التلاقح بين الحضارتين الغربية والإسلامية، في حدود ما يحقق الاستفادة، ولا يمُس بالخصائص والثوابت.
الكلمات المفتاحية: الحضارة؛ الثوابت؛ الطرقية؛ الغلو؛ العبقري العصامي.

Abstract:
Cette étude se déroule autour de la vision de ABI AL HASSAN ANNADAOUI concernant la réalité de la civilisation arabe, et sa critique d'en elle se construit des bases et facteurs purement matérielles et son impact sur la réalité islamique et sa précision en montrant dans ce contexte lui-même les bases substituées de la civilisation islamique et ses ingrédients spécifiques quand à la base référentielle, Et la gratitude de l'objectif et entente des mesures et sa prise en charge spirituelle et corporelle de l'homme.

Les mots clefs: Civilisation ; constante ; methodes soufies ; excessif ; le genie de soi**.**

مقدمة:

لقد باتت الحضارة الغربية بمختلف أشكالها ومضامينها واقعا مهيمنا ومفروضا، بحيث لا مجال لإنكاره وإضماره، وذلك بما توصلت إليه من نفوذ وسيطرة على كافة مجالات العيش وشعاب الحياة، وبما تمكنت من توفيره من أساليب للإغراء والإغواء، ولا سيما في ظل غياب البديل المخالف الذي يسوق مجالات التطور وفق رؤية إسلامية أشمل نفعا وأكثر عناية.

ولقد شكَّلَ هذا الحاصل مجالا واسعا وثريا من اهتمام الأعلام وأولي الأبصار، فجادت قرائحهم وسالت أقلامهم في البحث عن إدراك حقيقة هذه الحضارة، وتحديد الموقف منها.

ومن أبرز الأعلام والمفكرين الذي أدلو بدلوهم في هذا الباب، أبو الحسن الندوي-رحمة الله عليه-إذ تمحورت كتاباته في عمومها حول بيان حقيقة هذه الحضارة، وفق رؤية نقدية شاملة، ومن ثمة التأسيس إلى حضارة إسلامية بديلة، وهو ما يجعلنا نقف أمام الإشكالية التالية:

ما هي حقيقة الحضارة الغربية عند أبي الحسن الندوي؟.

والإجابة عن هذا التساؤل تقتضي بالضرورة وصفا شاملا ودقيقا لطبيعة هذه الحضارة، وبيان مرتكزاتها وأسسها، وغثها وسمينها، وهو ما يجعلنا نبني على الإشكالية سالفة الذكر جملة من التساؤلات المتفرعة عنها على النحو التالي:

-أين مكمن الخلل وموطن الضعف في هذه الحضارة ؟ وهل من صائب القول الحُكم عليها إجمالا بالرفض والقطيعة؟.

- هل ثمة ضوابط للاستفادة من هذه الحضارة والتفاعل معها ؟.

-كيف يمكن التأسيس لحضارة إسلامية بديلة جامعة بين التقنية والأخلاق ؟ وما هي متطلبات وشرائط ذلك؟.

وللإجابة عن هذه التساؤلات ارتأينا معالجة هذا الموضوع وفق الخطة الآتية:

- مقـــــــــدمة.

-المبحث الأول: الحضارة الغربية وآثارها في الأقطار الإسلامية.

المطلب الأول: أثر الحضارة الغربية في الجـيل المسـلم.

المطلب الثاني: موقف الأقطار الإسلامية من الحضارة الغربية.

المطلب الثالث: إشـــــــارات قـــرآنية إلى طبيعة الحضارة الغربية.
-المبحث الثاني: الحضارة الإسلامية بين الواقع والآفاق.
المطلب الأول: مشكلة الأمة الإســـــلامية.
المطلب الثاني: أزمة الانحرافات الطرقية.
المطلب الثالث: الغلو في استعمال العقل وموت الوجدان.
-الخاتمة.

المبحث الأول: الحضارة الغربية وآثارها في الأقطار الإسلامية

المطلب الأول: أثر الحضارة الغربية في الجيل المسلم

لقد غدت الحضارة الغربية واقعا مفروضا لا يمكن تجاهله، كما غدا تأثيرها في الأوساط العامة والقيم والتقاليد والأنظمة الإدارية وغيرها هو الآخر جليا لا يمكن إضماره.

ولقد كان أبو الحسن الندوي - رحمة الله عليه – من أبرز مفكري هذا العصر وعلمائه الذين أدركوا خطورة انعكاسات هذا الغزو بوجهيه المادي والفكري، وتفطنوا إلى آثاره السلبية على الجيل المثقف، مما جعله يُسخر قلمه في فضحِ عوار هذه الحضارة، مُنَبها على أخطارها وأضرارها، وذلك في سياق وصفه لفكرة الصراع بينها وبين الفكرة الإسلامية.

وللندوي في ذلك منهج دقيق وجميل، فهو يضع أصبعه على مكمن الخلل أولا، ثم يُقدم البدائل الكامنة في رحم الفكرة الإسلامية ثانيا، ثم يُبين كيفية فهم وتوظيف هذه البدائل ثالثا.

ومن أوجه تأثير الحضارة الغربية في الأقطار الإسلامية وقوعها تحت وطأتها، ولا سيما في أنظمة التعليم والإدارة، وهي مرحلة من أعقد مراحل تاريخ أمتنا تمخض عنها سرعة انهيار الأمة الإسلامية، ووقوعها فريسة لبريق هذه الحضارة المهيمنة، ومما ساعد على هذه الهيمنة شعور المسلمين بالتفوق الحضاري والاجتماعي، والعقلي والخلقي للآخر، وفي المقابل شعورهم بالانهزامية، أو ما يُعرف بمركب النقص[1]، وفي ظل هذا المعترك حدث الصراع بين الفكرتين، وظهر بصورة أوضح في الهند ومصر والمغرب الإسلامي، وقد بين الندوي أيضا أن هذا التصادم الحضاري قد رجحت فيه كفة الغَلَبة للفكرة الغربية، وذلك لكونها تحتضنها حضارة فتية قائمة على العلوم التطبيقية، والإنتاج المادي المبتكر، وقوة الحكومات

المشرفة، وهو ما أوقع الأمة الإسلامية في ورطة التأثر، وسرعة الانقياد إلى حد لم يعرف له التاريخ مثيلا[2].

وهذا التحليل الذي يذهب إليه الندوي هو إشارة واضحة منه إلى القوة التي تملكتها الحضارة الغربية، والتي أهلتها إلى التفوق في مختلف الميادين، ومكنتها من قيادة زمام الأمور على كافة الأصعدة، وهي قوة في مقابلة ضعف المقومات التي ترتكز عليها الأمة الإسلامية، ونتيجة طبيعية لتفريطها في الإكتراث بهذه المقومات، وعكوفها أمدا من الدهر في ساحة التنظير، وكثرة اشتغالها بالفروع التي لا تنفع، ولا يحدث على أساسها تفوق ولا إزدهار، أضف إلى ذلك ما ذكره الندوي من ضعف الوازع الديني، وموت القوة الروحية، ونَضْب الشلال الإيماني المتدفق والذي من شأنه أن يبعث القوة في الحياة، ويُمد النشاط البشري بالفاعلية.

ومما أشار إليه الندوي أيضا – ونراه صائبا وقويا- في سياق الضعف الإيماني الذي تسلل إلى الأمة الإسلامية هو الحالة النفسية المنهزمة أمام العقلية الغربية المتطورة في سياقات من التطرف، وهو ما هيمن على جيل مثقف نشأ تحت ظلال موجة متدفقة من الحضارة الغربية[3].

وليس من المستغرب بمكان أن يحدث احتكاك ينجم عنه تأثر، بل وقد يُفضي إلى انصهار تام للمغلوب المنهزم في الغالب المتفوق، ومن الطبيعي أن يحدث ذلك في ظل غياب البديل الأقوى، لا سيما إذا اقترن ذلك بانعدام المناعة الكافية في العقل المسلم والتي تمنع عنه وفود بكتيريا من المغريات، وفي ظل موت الضمير الإيماني الذي يمده برؤية المشهد الصائب للحياة، وما يليها من ضرورة العودة إلى الآخرة.

وما ذكرناه هنا جعل تباينا في المواقف التي تبنتها الأقطار الإسلامية إزاء هذا الزخم الحضاري الوافد، وهو ما سنُبينه استقراءً من كتابات الندوي في هذا الشأن.

المطلب الثاني: موقف الأقطار الإسلامية من الحضارة الغربية

يمكن التمييز بين ثلاثة مواقف للأمة الإسلامية – شعوبا وحكومات – من هذه الحضارة، والتي تتحدد معها نسقية التعامل، وسنذكرها في هذا المقام ثم نورد عليها ما تيسر لنا من التعقيب والتحليل.

-أ- الموقف السلبي:

وهو على حد تعبير الندوي الموقف المعارض الثائر[4]، وهو ما يمكن تسميته بالموقف الرافض لمختلف تشكلات الحضارة الغربية شكلا ومضمونا، من غير تفرقة بين المشترك الإنساني الذي يسمح الدين بالتعامل معه، والاستفادة منه، والذي لا

مجال لإنكار التفوق الغربي فيه، وبين ما يُمثل خصائص الأمة، وجوهر عقيدتها الثابتة، وتقاليدها وإرثها النبوي، وهو ما يُمنع المساس به.

ونحن نُقر بتشوه هذه الرؤية وقصورها، إذ إن الحكم على الحضارة الغربية بأنها شر كلها هو حكم قاصر يمكن عدُّه ضربا من ضروب الهراء، وهو من أسباب التخلف الشديد الذي حبس الأمة الإسلامية عن اللحاق بالركب الحضاري ((وقطع صلة هذا الجزء عن باقي العالم، وجعله جزيرة منقطعة لا مناعة لها ولا قيمة، والبر لا مكان فيه للجزر المنقطعة الصغيرة))[5].

وإضافة إلى هذا فإن الندوي شدد في النكير على أصحاب هذا الموقف، وعده صناعة تعبر عن ضيق العقل، وتعطيل للقوى التي خلقها الله في الانسان وحثه على اعتمادها وتوظيفها، وجعلها من أسباب ووسائل تحقيق القوة للأمة الإسلامية، و كل قول بخلاف ذلك إنما هو جناية على الدين، وسوء تفسير له، وهو جهل بالتعامل مع السنن الكونية[6].

ويمكن أن نضيف إلى ما ذكره الندوي من أسباب التفريط في الإقتباس الحضاري من العالم الغربي، والتي في مقدمتها الجهل بحقيقة الدين الذي يحث على التفاعل الحضاري، يمكن أن نضيف الخوف من الآخر، أو الخوف من التأثر والانصهار فيه، وهو خوف مرده إلى الشك في النفس، وغياب التعويل على القدرة الذاتية التي تمنع من التعامل مع الآخر في حدود ما لا يؤثر على الثوابت، ولا يقدح في الهوية والخصائص الاسلامية، و تلك خصائص حازت عليها أمتنا من رسالتها، ومن وحيها الكريم، وغياب هذه المفاهيم هو الذي جعل أمتنا حبيسة في طور الخوف من التأثر، بعيدة عن ولوج طور التأثير الذي نجح فيه أسلافنا عن جدارة.

والذي يجب على أصحاب هذا الموقف هو التعمق في معرفة هذا الدين وما يحتويه من عناصر القوة والفطنة، فإذا حيز لهم هذا المقام وبلغوا هذا الشأو فقد تمكنوا حينها من إدراك وفقه ضوابط الاحتكاك بالآخر، و حدود الاستفادة منه، والدين نفسه يحث في دلالات نصوصه القاطعة على الانفتاح على الآخر الذي عرف كيف يتملك ناصية القوة والغلبة، ثم تشرع الأمة – وفق هذه الرؤية- إلى نقل تلك القوة إلى ميادينها، وهذا يقتضي إنفتاحا على المعارف الكامنة هناك، كالتكنولوجيا ومختلف وسائل التصنيع والتسلح، وشتى ميادين وفضاءات المبادلات التجارية والنمو الإقتصادي وغيرها، ولطالما أن الذي يحدث بالنسبة لأصحاب هذا الفهم هو العكس من ذلك تماما فإن هذه الأمة لن تبرح تقوقعها على ذاتها، وستواصل رحلة تخلفها عن

جدارة، وهي متباطئة السير في ذيل القوافل البشرية، حتى إنها لعُدت شرا على الدين نفسه بما أساءت إليه وإن تظاهرت بالتشبث به.

-ب- موقف الاستسلام الكلي والتقليد.

ويأتي هذا الموقف على النقيض من الموقف الأول، بحيث ينصهر أصحابه في تيار الحضارة الغربية انصهارا كليا، وقد وصفه الندوي بقوله: ((موقف الاستسلام والخضوع الكامل، موقف المقلد، المؤمن المتحمس، والتلميذ البار الصغير الذي لم يبلغ بعد سن التمييز، وهو أن يقبل العالم الإسلامي أو جزء منه هذه الحضارة المادية الآلية ذات الطبيعة الخاصة بحذافيرها، يقبلها بعقائدها الأساسية، ومناهجها الفكرية، وفلسفتها المادية،... ويحاول تطبيقها في هذا البلد الإسلامي برمتها، ويتحمل في سبيل ذلك كل صعوبة وعنت، ويدفع له أعظم ثمن، وأبهظ قيمة))[7].

ومن الجلي أن مثل هذه المواقف يتبناها الناس في أزمنة تعم فيها الجهالات وتضعف فيها العقول، فيسيطر عليهم الشعور بالهزيمة فيوقعهم فرائسا لغيرهم، فينسلخون من ذواتهم، ويكفرون بهويتهم، ويتنكرون لجلودهم، ويبين الندوي في هذا السياق أنه جدير بهم أخذ العبرة من المجتمع الإسلامي الأول خلال القرنين 1 و 2 ه، حيث كان أفراده في غاية الفتوة، وفي منتهى القوة والازدهار، وكانت تحيط بهم حضارتان عظيمتان، الحضارة الرومية، والحضارة اليونانية، وعلى الرغم من ذلك فإننا لا نجد لهذين الحضارتين أدنى أثر في السيطرة الفكرية على أفراد الأمة الإسلامية، لا لشيء إلا لأنهم كانوا أمة في مستوى الوعي، أمة سلاحها قيمها الروحية ثابتة، وقوة إيمانها الراسخة، وبصيرتهم بحدود التعامل مع الآخر[8].

-ج- الموقف المعتدل.

وهو موقف تُمثله الأمة التي فهمت رسالتها الحضارية، وأدركت غايتها من وجودها، وكانت على بصيرة من أمر دينها ودنياها، وامتثلت قوله تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة: 38).

وفي هذا السياق يحدد لنا الندوي –رحمة الله عليه- سمات أصحاب هذا الاتجاه أمام الزخم الحضاري الغربي فيقول: ((فالمسلم يجمع بين الانتفاع بمرافق الحياة وأسباب الدنيا واستخدامها فيما خُلق لأجله، وسُخر له، وبين السعي للآخرة، والكفاح لها كغاية خُلق لأجلها، فهو ينظر إلى الدنيا وقواتها ووسائلها كمطية ومركب لا كراكب ومتصرف، وكمملوك ورقيق لا كمالك وسيد، ووسيلة لا كغاية، وينظر إلى الآخرة كغاية ينتهي إليها، ووطن يلجأ إليها))[9].

ويبين لنا الندوي أيضا كيفية نستفيد من هذه الحضارة، وكيف ننهل منها، وما هي حدود الأخذ والاقتباس منها، ويسمي المسلم الذي حاز على هذه الدرجة من الوعي بالعبقري العصامي، ويقول في هذا: ((إن الفراغ الهائل الأكبر في العالم الإسلامي هو الحاجة إلى ذلك العبقري العصامي الذي يواجه الحضارة الغربية بشجاعة وإيمان وذكاء، ويشق له طريقا بين مناهجها ومذاهبها، وبين فضائلها ورذائلها طريقا يترفع فيها عن المحاكاة، وعن التطرف والمغالاة، غير خاضع فيها للأشكال والمظاهر، والمفاهيم السطحية، متمسكا بالحقائق وأسباب القوة، وباللباب دون القشور))[10].

وفي صورة أكثر وضوحا يقول: ((العبقري العصامي الذي يأخذ من علوم الغرب ما تفتقر إليه أمته وبلاده، وما ينفعه عمليا، وما ليس عليه طابع غرب أو شرق، إنما هي علوم تجريبية تطبيقية، وينفض عن كل ما يأخذه من الغرب غبارا لصق به في القرون المظلمة، وفي عصر الثورة على الدين، وفي حالة من توتر أعصاب وقلق نفوس، يأخذ العلوم المفيدة مجردة من روح الإلحاد والعداء للدين، ومن النتائج الخاطئة، ويُطعمها بالإيمان بفاطر الكون ومدبره))[11].

ومما لا يختلف فيه إثنان أن العلوم النافعة للأمة كالطب والهندسة والعلوم التجريبية بصورة عامة لا صلة لها بإيمان ولا بإلحاد، والإسلام كدين يحث عليها من غير تدخل في خصائصها وكيفياتها، فذلك مجاله اجتهاد العقل البشري، والإسلام نفسه حث العقل على النظر والتدبر، وعلى البحث والتأمل، وذلك بلا خلاف هو سبيل التطور والإزدهار.

المطلب الثالث: إشارات قرآنية إلى طبيعة الحضارة الغربية

يبدو أنه من الضروري قبل البدء في الحديث عن إشارات القرآن إلى حقيقة هذا الصراع القائم بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية أن نشير على عجالة إلى خاصية من خصائص الندوي –رحمة الله عليه-، وذلك لما تضفيه هذه الخاصية من وضوح أكثر على ما نحن بصدده، وهي أن شخصية الندوي شخصية وقافة عند آيات الوحي الكريم، تدبُّرا واستنباطا وإسقاطا، وفي هذا المقام سنكتفي من ذلك بوقفة من وقفاته حول سورة من سور القرآن الكريم، وهي سورة الكهف، ثم نُبين كيف أن الرجل غاص أعماق هذه السورة – على غير عادة المفسرين- مستنبطا منها حقيقة ذلك الصراع الرهيب بين الدنيوية الغاشمة والإيمان الصحيح.

لقد استطاع الندوي أن يُحدد الوحدة الموضوعية في هذه السورة خلافا لما يدل عليه ظاهرها من تنوع المواضيع القصصية التي تناولتها، واستطاع أيضا أن يبين لنا ما انبنت عليه كُلا من الحضارتين من أسس و خصائص، ولبيان ذلك نقول:

-إن هناك جهودا كبيرة مبذولة من قِبَل المسيحية المُحرفة واليهودية الثائرة في توجيه الحياة إلى المادية الرعناء، المجردة من أدنى القيم، والمعزولة عن أبسط المبادئ، وهو اتجاه لَعين خطير بات متحكما في مصير العالم والإنسانية جمعاء، لاسيما وأن اليهود أمسو عنصرا فعالا في قيادة الحضارة الغربية، وتوجيهها ضد القيم والأخلاق[12].

-إن هذه الحضارة نشأت وترعرعت في أحضان المسيحية المعروفة بشغفها الزائد بزينة الحياة الدنيا ونعيمها الزائل، وجعلت ذلك محور اهتمامها[13].

ومن هنا نجد أن الندوي يمدنا بالمقابل، وهو الخروج من ربقة الحضارة الغربية الضيقة إلى رحاب الحضارة الإسلامية الشاسعة، فهي حضارة شكلت في ذهنية المسلم تلك النظرة الصائبة إلى الحياة الدنيا، وأن ما فيها من نعيم يجب أن تُطلب به الآخرة، وأن يُستغل في خدمة الدين، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا **(7)** وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾)[14] (الكهف: 7-8).

كما نجد أن الندوي وهو يطوف في مناحي هذه السورة يتطرق إلى ما احتوت عليه من عقيدة بالله واليوم الآخر، مبينا أنها عقيدة نفسية وعقلية وطبيعية تأباها الحياة الجانحة إلى المادية التي لا تعترف إلا بالمشاهدة، والتجربة، والمنفعة العاجلة[15]، ونجده يتناول محتويات السورة مستنبطا منها ما سلف ذكره من حقيقة هذا الصراع، وذلك ما سنورده بإيجاز:

1)- قصة أصحاب الكهف: وهي قصة تُعبِّر – في جملتها- عن حقيقة الصراع بين التوحيد الذي تدعو إليه المسيحية الصحيحة وبين الأوثان التي قامت عليها معتقدات الإمبراطورية الحاكمة في تلك الأزمنة، ولقد استطاع الندوي أن يتجاوز ما آل إليه المفسرون من كونها كانت إحدى إجابات النبي ﷺ عن سؤال من أسئلة اليهود، إلى أبعد من ذلك، حيث ذهب إلى أنها تصوير لمضامين الصراع بين الحق والباطل، يقول: ((وجد رهط من الناس تسربت إليهم دعوة المسيح، فصادفت منهم عقولا واعية، وقلوبا خاشعة، وضمائر حية، ففتحتها وملكتها، وشغلت من نفوس الناس كل مكان، ومن قلوبهم وتفكيرهم كل جانب))[16].

2)- قصة صاحب الجنتين: وهي الأخرى تحمل في طياتها صورة ناصعة من صور الركون إلى الحضارة المادية أو كما سماها البوطي -رحمة الله عليه- الحضارة الارتجالية[17] ولا يخفى ما ينجم عن ذلك من عواقب وخيمة، ويُبين الندوي أنه لا يخلو زمان ولا مكان من مادية متسلطة في جمود، ومن إيمان يواجه في صمود، والمتأمل في صاحب الجنتين يجده قد حبس نفسه في عالم الأسباب، وأرجع ما تملَّكَ إلى قدرته، وكذلك شأن الحضارة الغربية التي عُرفت ((بشدة الاعتماد على وسائلها وقواها وطاقاتها، فتعلن حكوماتها عن تحقق مشاريعها العمرانية والاقتصادية حتى ما يتوقف منها على موافقة الطبيعة، واعتدال المواسم والفصول، وتَسخَرُ منها الإرادة الإلهية فتُصاب بنقص في الأموال والثمرات))[18]، وهو ذاته المصير الذي لقيَهُ صاحب الجنتين بمكوثه في ربقة الشرك، وهو ليس من قبيل الشرك العقدي بدلالة إيمانه ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ (الكهف: 36) وإنما هو إشراكه للأسباب مع الله تعالى[19].

ولا ينبغي في هذا السياق أن نفهم أن ثمة تعارضا بين الأسباب وبين حقيقة التوكل، بل إننا نفهم أن المؤمن لا يكون صادقا في توكله ما لم يأت بالأسباب كاملة غير منقوصة، يقول الشيخ محمد الغزالي في هذا السياق ((ومع تنويهنا بقانون السببية وقيمة العوامل المادية فإن هناك حقيقة مقررة في الأرض والسماء وهي أن الأمور لا تبلغ تمامها إلا بإذن الله))[20].

3)- قصة موسى والخضر: وهي الأخرى من القصص التي تحمل تمثيلا للصراع بين هذين النظرتين، النظرة السطحية التي تحكم على الأشياء من خلال ظاهرها، والنظرة البعيدة التي تتجاوز الظاهر إلى ما ورائه من أسرار الغيب، فأما النظرة الأولى فتظهر في سيدنا موسى –عليه السلام-، وأما النظرة الثانية فتظهر في الخضر - عليه السلام - وهو الذي أرسله الله ليُعلم موسى ألا يقف بالأشياء عند ظاهرها المحسوس، إذ ثمة وراء المحسوس غيب يُسيره ويتحكم فيه، والخلاصة التي ينتهي إليها الندوي بعد طول طواف بهذه السورة هي ما يقرره في قوله: ((إن هذه القصة وما تشتمل عليه من روح ومغزى تتخذ التفكير المادي الذي يُلح على أن الحياة هي التي فهمها الإنسان، وعلى أن هذا الكون هو الذي أحاط به علما، وأن ليست الحقيقة إلا ما تترائى للعيون، وأن الظواهر هي التي يصح عليها الحكم))[21].

4)- قصة ذي القرنين: وتطرق الندوي إلى سرد أحداثها، وذكر اختلاف العلماء في شخصية ذي القرنين مستبعدا أن يكون هو الاسكندر المقدوني وغير ذلك

مما يتعلق بتفاصيل القصة، والذي يعنينا في هذا المقام إنما هو الوقوف على تصوير الصراع بين الحضارتين على نحو ما أسلفنا ذكره.

وذو القرنين رجل أوتي الصلاح والعلم، وأوتي القوة والأسباب التي مكَّنته من الانتصار لأمة ((تعيش في فجوة بين جبلين، تعيش في خطر دائم، وفي قلق دائم، من أمة همجية وحشية وراء الجبال))[22].

والقوة التي أوتيها ذو القرنين هي قوة في عالم المادة والأسباب، وتلك هي الإمكانات التي استندت إليها الحضارة الغربية اليوم، وتوقفت عندها، وذو القرنين لم يكتف بما أوتي من قوة ولم يغتر بها، بل على النقيض من ذلك ربط هذه الأسباب بخالقها في صورة إيمانية قوية ((وهنا تجلى الإيمان في الملك القوي الغني القوي القاهر للأمم، الفاتح للعالم، فما زها وما سها وما تكبر، ولم يقل ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ بل رد الفضل في ذلك إلى الله، ولم يعتقد أن عمله خالد دائم، وأن السد لا سبيل إليه، بل قال في فقه المؤمن العليم، المؤمن بالآخرة والعليم بضعف الإنسان، وبتقلبات الزمان، ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (الكهف: 98) [23].

المبحث الثاني: الحضارة الإسلامية بين الواقع والآفاق

المطلب الأول: مشكلة الأمة الإسلامية

يمكن القول إنه بقدر ما اشتغل أبو الحسن الندوي بنقد الحضارة الغربية وبيان سلبياتها، بقدر ما اشتغل أيضا بالحضارة الإسلامية، من حيث مفهومها وخصائصها ومزاياها، مبينا أنها حضارة متكاملة اهتمت بالإنسان من حيث كونه جسدا وروحا، طينا وأخلاقا، ظاهرا وباطنا.

ثم إن اهتمام الندوي بالجانب الأخلاقي كإحدى المقومات الأساسية في بناء الحضارة الاسلامية إنما هو بيان لأهمية هذا الجانب، فالجانب الروحي في الإسلام هو جوهر الحضارة، وهو سر نهضة أي أمة من الأمم، وهو الباعث على ركوب موجة التحضر والرقي في شتى ميادين الحياة، أي إن الحضارة الاسلامية مبناها – كما يقول الندوي- قوة الإيمان التي تصنع البطولة والشجاعة، وتصنع العفة والأمانة، والتطوع والبناء، وسمو الأهداف وبُعد النظر[24] وفي المقابل فإن غياب هذه القيمة وانتفائها من أي حضارة هو السبب في انحلالها، وهو السر الكامن وراء تفشي مختلف صور الفساد والانحطاط، وينقل عن شيخه فيقول: ((ورد كل هذا الفساد في

مختلف نواحي الحياة، ورأس البلاء، وأصل الشقاء، إلى عدم الإخلاص، وسوء الأخلاق))[25].

ومن هنا يمكن القول أن السر الكامن وراء ضعف الحضارة الإسلامية إنما هو ضعف الأخلاق، ذلك أن ضعف الأخلاق وانهيار القيم من شأنه أن يقود إلى ولوج عالم الفساد، وما من حضارة دب الفساد في ربوعها إلا وكان مصيرها الفناء و الانهيار حتما.

ومنه فإن الأزمة إنما هي أزمة أخلاق، وقد بين الندوي أن حلول أزمة الأخلاق من شأنه أن يقود إلى الركوض وراء المناصب والمآرب، وإلى تفشي الشقاق بين الجماعات والأفراد، وبالتالي فإن هذا العالم بأسره هو عالم مفكك ومضطهد إلى غاية أن هبت عليه نفحات الإسلام ونسائم نبيه ﷺ[26] ، تلك النسمات الإيمانية التي يذكر الندوي في موضع آخر من كتبه أنها هي التي أحدثت أكبر إنقلاب في تاريخ البشرية، واستطاعت أن تنقل المسلمين من طور المادية الرعناء التي ظلوا لها عاكفين إلى سعة الروحانية السمحاء[27]، ويستشهد في هذا السياق أيضا من واقعه بتجربة شيخه الرائبوري، ذلك العالم الرباني الذي جسد بعمق تلك الأزمة الروحية في الهند، والتي ما فتأت تتسلل إلى صفوف الحركات الدعوية، وتُقعدها عن الغايات السامية والتي كان يُفترض أن تجعلها نصب عينيها وهي تشق طريقها نحو عالم الإصلاح، ومن خير النماذج التي تمدنا بصورة صائبة وواقعية عن هذه المأساة يذكر لنا حركة الخلافة وهي تشق طريقها في ريعان شبابها، وفي عز قوتها، ولكن أسباب الوهن كانت بمثابة الداء الذي أمتص قوتها، فما لبثت بعد وفاة شيخها محمود حسن (ت1339ه) حتى تلاشت أخلاقها، وفُقدت فيها عناصر القوة كالإخلاص الطاعة، لتحل محلها الفوضى الضاربة في أرجائها[28].

المطلب الثاني: أزمة الانحرافات الطرقية.

يذكر الندوي أيضا أن من أسباب الهوان الذي تسرب إلى جوهر الحضارة الإسلامية الانحرافات التي وقعت فيها بعض الطرائق الصوفية، فهي بدلا من أن تفهم التصوف فهما سليما، وتُفعِّلُهُ في واقع الحياة، لجأت إلى ثقافات تتنافى جملة وتفصيلا مع روح الدين وجوهر التصوف نفسه.

فالتصوف هو مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة كما هو جلي في حديث جبريل الشهير، وهو بهذا المفهوم يمثل معرفة متأصلة في الوحي الكريم لا يُنكر ذلك إلا جاهل أو حقود، وأما الثقافات الصوفية فهي التي نشأت تبعا لذلك،

وتشكلت في مفاهيم مختلفة في صورةِ ما يُعرف بالتصوف الجماعي، مما جعل كثيرا من الانحرافات والمغالطات تتسرب إليها، وهو السبب في لجوء الكثير من الباحثين والأعلام إلى الحكم على التصوف بأحكام قاسية من خلال الحكم على الطرق الصوفية، ونحسب أن ذلك هو العناد والجهل عينه.

ومن صور الانحرافات التي وقعت فيها بعض طرائق المتصوفة –كما يذكر الندوي- زهدها وغفلتها عن التزكية، واشتغالها برسوم الظاهر بدلا من الانكباب على الباطن والجواهر، ويقول في وصف بعض انحرافات الطرقية ومزالقها في منطقة البنجاب: ((أهل الطرق والمشايخ في بلدة البنجاب أقاموا أسواقا ومتاجر تباع فيها الطريقة وتشترى، ويُساوم عليها كما يساوم على السلعة في عالم المادة، أما غذاء القلب والروح وزاد المعرفة والإيمان فلم يبق منه إلا اسمه أو رسمه))[29].

ومن وجوه الانحراف أيضا في الطرقية عدم الوفاء عند الأتباع، ونقص الصدق والإخلاص، وانزلاقهم في أودية من الشرك والبدع والخرافات، أضف إلى ذلك ما يساورهم من شكوك وأوهام في الشيوخ والمربين[30]، وهم الذين اصطلح عليهم الندوي في مقام آخر بالداعين إلى رسوم الجاهلية والمحدثات، ويأكلون أموال الناس بالباطل، وأولئك الذين قيض الله لهم العلماء العارفين الذين بذلوا جهودهم في التصدي لهذه العلل، ففتحوا المدارس العربية والمعاهد الدينية التي وقفت في وجه الخرافة، وأبادت البدعة، ونشرت الدين الصحيح[31]

وعلى أية حال فإن ما يمكن قوله حيال ما ذكره الندوي هنا أنه قدَّم تصويرا دقيقا لما تنحرف إليه بعض الطرائق الصوفية، ومن تمام الموضوعية أن نقول أن ثمة في طرق المتصوفة ما هو سمين نافع، وما هو غث ضار، ومن سمينها أنها قدمت خدمة جليلة للقرآن الكريم تحفيظا وتلاوة وتفسيرا، وعكوفها على تعليم وتلقين الأوراد والأذكار، وأنها كانت لها أدوار لا يُستهان بها في نشر التآخي، وزرع روح الأخوة، ونشر القيم، والعمل على إصلاح ذات البين، وغيرها من صنائع البر، وآية ذلك الزاوية العلاوية والتيجانية في الجزائر وغيرها كثير.

المطلب الثالث: الغلو في استعمال العقل وموت الوجدان.

من المعلوم من المعرفة بالضرورة أن للعقل في الإسلام أهمية بالغة وقصوى، فهو مناط التكليف، وميزان التمييز بين الحقيقة والخرافة، وملكة ميز الله تعالى بها الإنسان عن سائر ما خلق، غير أن هذا كله لا يمنحه مطلق السلطة، ولا يسلمه احتكار الأحكام، ويستوي في المضرة تهميشه مع الإسراف في استعماله

والاحتكام إليه، والخلاصة كما قال الباحث إلياس بلكا: ((حيث يؤدي الغلو في التعقل المحض إلى تعثر نمو المعرفة))[32]، وقد نبه الندوي في أزيد من موضع إلى تلك الانعكاسات السلبية التي يخلفها الغلو في اعتماد العقل والخروج به عن طوره المحدود[33].

ومن هذا المنطلق يتفطن الندوي إلى المغبة التي قصفت عمق الحضارة الإسلامية، والمتمثلة في إفراط أهل العلم في استعمالهم العقل، والمغالاة في الخضوع للمنطق بما يحتويه من مصطلحات ومقدمات، وهو ما ترتب عليه جفاف القلب والروح، وغدت الأمة الإسلامية – تبعا لذلك- فريسة لمادية جافة، وتطرف عقلي، وجمود وجداني[34].

ومن صور ما ذكرنا ما أشار إليه الندوي أيضا من حال الإسلامية في القرن السابع الهجري، وهي تتجرع مرارة واقع أليم خلفته تلك العاصفة العقلية الهوجاء التي اجتاحتها، و كانت نابعة من قوة بروز ما يسمى بعلم الكلام، هذا اللون من المعرفة العقلية الذي هيمن على العقل المسلم وشغله بصورة مطلقة إلى حد أن اضمحلت معه الروح، وأفَلَت أنوار القلب[35].

ومن ذلك أيضا مايذكره لنا الندوي في ثنايا هذا الطغيان المادي المهيمن، بروز شخصية إسلامية شفافة في الأوساط، تلك الشخصية التي ساقتها الأقدار لتُعيد إلى الروح حياتها، ولتفجر ينابيع القلب التي طالما سادها الجفاء، إنها شخصية مولانا جلال الدين الرومي (ت 672ه)، الصوفي المتألق، شاعر الحب ورمز السلام، والذي أيقظ العالم من سُباته، وألهب جذوة الروح، وعمل جهده على أن تدب الحياة في الجسد، ومن أقواله في هذا الصدد: ((إن الحب ليحول المر حلوا، والتراب تبرا، والكدر صفاء، والألم شقاء، والسجن روضة، والسقم نعمة، والقهر رحمة، وهو الذي يلين الحديد، ويُذيب الحجر، ويبعث الميت وينفخ فيه الروح، ويُسود العبد))[36].

وهذه المعاني التي يسوقها الندوي هي معاني متأصلة في الوحي الكريم ونابعة منه قبل كل شيء، ذلك أن القرآن الكريم اهتم بالروح اهتماما كبيرا، واعتبر العزوف أو الغفلة عنها هي الموت عينه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: 24).

ولجلال الدين الرومي أقوال كثيرة في هذا الصدد، وقد تناقلتها مصنفات المتصوفة واعتمدتها في سياقات عديدة من الاستدلال على أهمية حياة الروح وما لها

من أثر في توجيه السلوك، وهنا سنكتفي منها بقول واحد نقله عنه الندوي، ثم نتبعه بالتعليق، يقول: ((إن هذا الحب هو الجناح الذي يطير به الإنسان المادي الثقيل في الأجواء، ويصل من السمك إلى السماك، ومن الثرى إلى الثرية))[37]، ولذلك نجد أن الحضارة الإسلامية لا تشرق شمسها إلا من أنوار القلب والوجدان، وهي حضارة تجمع بين تدفق الروح وحكمة العقل، وبين الشبح الترابي و نبضات القلوب، ولا نرى شدة اهتمام أرباب القلوب وأهل الأخلاق بهذه الازدواجية إلا لهذه الأسباب، وهي نفسها التي قادتهم إلى التحذير من الغلو في العقل، والجنوح إلى الشهوانية، وعدو ذلك من البلاء الذي يقلب الإنسان إلى حيوان شهواني صريع ملذاته، وقد عبر سفيان الثوري –رحمة الله عليه- عن ذلك بقوله:

كم قتيل لشهوة أف منها لم ينل منها إلا خِلاف الجميل.

شهوات الإنسان تكسبه الذل وتلقيه في البلاء الطويل[38].

ولقد نبَّهَ الندوي -رحمة الله عليه- إلى هذا من خلال مقارنة أجراها بين الحب والعقل، وأثبت أن الحب ضمان، وأن العقل خطر، ويقصد بالعقل هنا الغلو في استعماله، ونقل في ذلك عن جلال الدين الرومي قوله: ((إن الحب تراث أبينا آدم، أما الدهاء فهو بضاعة الشيطان، إن الداهية الحكيم يعتمد على نفسه وعقله، وأما الحب فتفويض وتسليم، إن العقل سباحة قد يصل بها الإنسان إلى الشاطئ وقد يغرق، وإن الحب سفينة نوح لا خوف على ركابها من الغرق))[39].

خـــــــاتمة:

وغاية ما يمكن أن نخلص إليه من خلال هذه الدراسة عن هذا الجانب من فكر أبي الحسن الندوي -رحمة الله عليه- هو أنه يُعد بحق من قلائل علماء العصر الذين أرسوا قواعد الحضارة الإسلامية، وما تنبني عليه من مقومات، وما تتميز به من خصائص، وذلك وفق رؤية سادها العمق، وتخللها التأصيل، فهو أولا يكشف لنا عن الوجه الخفي لتلك الحضارة الغربية التي باتت تفرض نفسها، ويمدنا بالتصور الصحيح عنها، وكيف أنها حضارة اهتمت بالشكل وأغفلت المضمون، فادعت رعاية الإنسان والتكفل بحاجياته في الحين الذي غيَّبت أهم ما فيه والذي هو حياة الروح والقلب، وحينها غدا الإنسان تحت ظلالها مجرد هيكل ترابي تحكمه شهواته، وتقوده مطامعه وأغراضه، وبعد هذا أمدنا بالمفهوم الصحيح للحضارة الإسلامية، وكيف أن

المرء فيها تنعم روحه بنسائم الإيمان، وينضبط سلوكه بضوابط الأخلاق، ثم ينطلق ساعيا في فجاج الحياة وشؤون العمران ومختلف أشكال الرقي والتقدم، فتأتي الحضارة بهذا المفهوم مترابطة الأطراف، منسجمة الأنساق، مكتملة الصورة، وبهذا تتحقق غاية الوجود الإنساني في أتم صورها.

كما أن من متطلبات الحضارة المتكاملة التي تهتم بالإنسان باعتباره روحا وجسدا، التلاقح أو التفاعل الحضاري، والانفتاح على الآخر، وذلك في حدود المشترك الإنساني الذي لا يطال الثوابت، بل والذي تقتصر وظيفته على تنمية شؤون الحياة وتفعيلها، وليس ثمة صورة نموذجية أكثر تجليا بهذه الحقائق من صورة أسلافنا، حيث تعاملوا مع الآخر وانفتحوا على ثقافاته من غير أن يجذبهم ذلك إلى الانصهار والذوبان في تلك الثقافات المجاورة، وهو ما يستدعي – من جهة أخرى- العودة إلى منهج أسلافنا لأخذ ضوابط التفاعل وحدود الاستفادة.

قائمة المصـــادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
- أبو الحسن الندوي، الحضارة الغربية الوافدة وأثرها في الجيل الجديد، القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط1، 1985م.
- الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، الكويت: دار القلم، ط5، 1985م.
- الصراع بين المادية والإيمان، الكويت: دار القلم، ط4، 1993م.
- ربانية لا رهبانية، بيروت: دار الشروق، ط1، 1983م.
- إذا هبت ريح الإيمان، الكويت: دار القلم، دط، دت.
- الخطر الأكبر على العالم العربي، القاهرة: دار الصحوة، ط1، 1994م.
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، القاهرة: دار ابن الجوزي، ط1، 2012.
- العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة، الكويت: دار القلم، ط3، 1986م.
- أضواء على الحركات والدعوات الدينية، الهند: مطبوعات المجمع العلمي، 1995م.
- بين الدين والمدنية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1981م.
- إزالة أسباب الخذلان، الهند: دار عرفات، دط، دت.
- إلياس بلكا، الغيب والعقل- دراسة في حدود المعرفة البشرية-، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2008م.
- البوطي (محمد سعيد رمضان)، من الفكر والقلب، دمشق: دار الفقيه، دط، دت.
- السلمي (أبو عبد الرحمن)، المقدمة في التصوف، تقديم وتحقيق يوسف زيدان، بيروت: دار الجيل، 1333ه..
- الغزالي (محمد)، سر تأخر العرب والمسلمين، مصر: مركز التوزيع بالاسكندرية، ط6، 2005م.

الهوامش:

[1]- أبو الحسن الندوي، الحضارة الغربية الوافدة وأثرها في الجيل المثقف، القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط1985،1 م، ص06.
[2]- أبو الحسن الندوي، المصدر نفسه، ص 07.
[3]- الندوي، الحضارة الغربية (مصدر سابق)، ص07.
[4]- الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، الكويت: دار القلم، ط5، 1985م، ص12.
[5]- الندوي، المصدر نفسه، ص 12.
[6]- المصدر نفسه، ص13.
[7]- الندوي، الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية (مصدر سابق)، ص 33.
[8]- الندوي، المصدر السابق ، ص34.
[9]- الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، (مصدر سابق)، ص 205.
[10]- المصدر نفسه، ص212.
[11]- المصدر السابق، ص213.
[12]- الندوي، الصراع بين المادية والإيمان، الكويت: دار القلم، ط4، 1993م، ص19.
[13]- المصدر السابق، ص15.
[14]-الندوي، الصراع بين المادية والإيمان، (مصدر سابق)، ص18.
[15]-المصدر نفسه، ص 19.
[16]- المصدر نفسه، ص 51.
[17]-محمد سعيد رمضان البوطي، من الفكر والقلب، دمشق: دار الفقيه، دط، دت، ص147.
[18]-الندوي، الصراع بين المادية والايمان، (مصدر سابق)، ص 85، 86.
[19]- المصدر نفسه، ص78.
[20]- محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، القاهرة: مركز التوزيع والنشر بالاسكندرية، ط6 ، 2005، ص 17.
[21]- الندوي، الصراع بين المادية والايمان (مصدر سابق)، ص34.
[22]- المصدر نفسه، ص 106.
[23]- المصدر السابق ، ص 109.
[24]- أبو الحسن الندوي، إذا هبت ريح الإيمان، الكويت: دار القلم، دط، دت، ص7.
[25]- أبو الحسن الندوي، ربانية لا رهبانية، بيروت: دار الشروق، ط1، 1983م، ص41.
[26]-الندوي، الخطر الأكبر على العالم العربي، القاهرة: دار الصحوة، ط1، 1994م، ص 53.

[27]- الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، القاهرة: دار ابن الجوزي، ط1، 2012، ص 93 .
[28]- الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدرسابق)، ص 39، 40.
[29]- الندوي، ربانية لارهبانية، (مصدر السابق)، ص40.
[30]-الندوي، المصدر السابق، ص 52.
[31]- الندوي، أضواء على الحركات والدعوات الدينية، الهند: مطبوعات المجمع العلمي، د ط، 1995، ص21.
[32]- إلياس بلكا، الغيب والعقل- دراسة في حدود المعرفة البشرية- فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2008م، ص 129.
[33]- للتفصيل يُنظر: الندوي، بين الدين والمدنية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1981، ص58.
[34]- الندوي، ربانية لا رهبانية، (مصدر سابق)، ص 55.
[35]- الندوي، المصدر نفسه، ص 55.
[36]- الندوي، المصدر السابق، ص 56.
[37]- الندوي، ربانية لا رهبانية (مصدر سابق)، ص 56.
[38]- نقلا عن أبي عبد الرحمن السلمي، المقدمة في التصوف، تقديم وتحقيق يوسف زيدان، بيروت: دار الجيل، ط1، 1333ه، ص63.
[39]- الندوي، المصدر السابق، ص 58.